

التنشئة الاجتماعية للمراهقين في ضوء جدلية الاندماج والانحراف دراسة نظرية للأسس و الأبعاد

الأستاذ صيد الطيب

قسم علم الاجتماع

جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص

تتحدد عملية التنشئة الاجتماعية سوسيولوجيا من خلال بعدين أساسيين يشكلان علاقة ازدواجية توجه المسار السلوكي العام للأفراد. هذان البعدان هما الفردانية والشخصانية في بناء الذات الإنسانية. تبدأ أولى نتائج هذه العملية بالتجسد في بداية سن المراهقة أين يكون الفرد بين طرفي معادلة: حدها الأول الاندماج في الوسط الاجتماعي وحدها الثاني الانحراف عن القواعد و المعايير الاجتماعية.

جاء موضوع هذه المقالة لدراسة أسس هذه المسألة وأبعادها الاجتماعية.

RESUME

Le processus de la socialisation se détermine sociologiquement par deux paramètres qui composent une relation paradoxale qui oriente le comportement général des individus : l'individualisme et le personnalisme. Les premiers résultats de ce processus commencent à se manifester au début de l'âge de l'adolescence. Par ailleurs, l'individu aura pénétré entre deux extrêmes : l'intégration au milieu social et la déviance par rapport à l'échelle des valeurs sociales.

Nous traiterons à travers cet article, les fondations de cette problématique et ces paramètres sociologiques.

نعرض في هذا المقال تحليلاً لحدود المعادلة "السوسيولوجية"، التي تربط التنشئة الاجتماعية للمراهقين بظاهرة الانحراف. ولأن عملية التنشئة الاجتماعية هي عملية أساسية في تكوين الذات والشخصية الاجتماعية فإنه سوف يتم توضيح السياقات الاجتماعية لهذه العملية. وهذا ما يسمح بتحديد طبيعة الارتباطات التي تجمع الفرد بجماعته الاجتماعية ومتطلبات الاندماج الاجتماعي، وتنمية الإحساس والشعور بالانتماء والتكافل مع أعضاء الجماعة. وهذا من باب أن تطور الذات الشخصية يعني في نفس الوقت التشابه والتخالف اجتماعياً، هذه الثنائية تشكل منطلقاً أساسياً ضمن هذا التحليل ..

إن الغايات الكبرى لعملية التنشئة الاجتماعية هو تحقيق التوافق والتكيف الاجتماعي، وضمن هذا المقال سنحاول كشف أهم الإخفاقات في تحقيق هذه الغايات والتي من شأنها أن تسمح بفتح مجال الانحراف وخطر التهميش الاجتماعي الذي تجلبه.

إن الدارس لهذا الموضوع بحاجة إلى تفكيك الأسس والأبعاد السوسيولوجية لعملية التنشئة الاجتماعية، بمختلف تركيباتها النظرية وذلك بغرض تحقيق الفهم لمسار الانحراف من منطلق تذبذب حالة الاندماج لدى الأفراد ضمن مجموعة من الأصعدة الإدراكية والعاطفية والقيمية.

أولاً: التنشئة الاجتماعية:

تهدف التنشئة الاجتماعية إلى تنمية الجانب الاجتماعي للذات من خلال إدخالها في الثقافة وهي تحاول جعل الأفراد متشابهين فيما بينهم، وتعارض الفردانية التي تعمل على تنمية الجانب الفردي وتكريس الاختلافات فيما بينهم .

هاتان العمليتان، هما أصل ازدواجية تكوين الذات الإنسانية.

لقد أولى "دوركهايم" أهمية كبيرة لموضوع تلك الازدواجية حينما اعتبر الإنسان قائم على ذات فردانية وذات اجتماعية واستند في تصوره هذا، للعقل أو "الضمير الجمعي" رغم أن الحالات النفس التي تمر بشعور الجماعة، تختلف في طبيعتها عن تلك التي تمر بشعور الأفراد⁽¹⁾.

وقد استطرد "دوركهايم" موضحاً بأن المجتمع ليس مجموعة من الأفراد، بل يتشكل من تركيب الضمائر الفردانية فيما بينها على نحو خاص ، وكذلك من اندماج نفوس الأفراد فيما بينها وتجاذبا، والذي يكون مدعاة للتأثير في بعضها البعض بحيث ينتج كائن جديد له شخصية نفسية جديدة أطلق عليها الشعور الجمعي (2).

نستخلص إذن أن الذات الفردانية تتشكل من مزاجنا وخصائصنا ووراثتنا ووضعنا الشخصي، وبعبارة أدق تتشكل الذات الفردانية من كل ما يكرس أحاديثنا واختلافنا مع الآخر، وبالعكس فإن الفئات الاجتماعية أو الجماعية تمثل ما يجعلنا متشابهين مع الآخرين (3). إنها تعبر عن نسق الأفكار والأحاسيس والعادات التي تشترك فيها مع الجماعات الاجتماعية التي تنتمي إليها "فالإنسان يحصل على اشباعاته من التفاعل مع الآخرين ويرغب في المصادقة والاستجابة مع الآخرين في جماعته كما يميل إلى الاتحاد بهم أو إلى تحطيمهم أو التعبير عن معاداتهم، إذ يؤكد علماء الاجتماع في اهتماماتهم هذه على أهمية تلك المبادئ السيكولوجية في تكوين السمات الإنسانية والصفات الاجتماعية للجماعات الاجتماعية" (4).

عندما تدخل أشكال الفعل والتفكير والإحساس الجماعي مجال إدراك الفرد، فإنه ينمو لديه شعور بالانتماء تجاه هذه الجماعة. "هذا الشعور هو المكون العاطفي للذات الاجتماعية وهو يحدد قوة الروابط التي تجمع الأفراد وتصلحهم مع مختلف الجماعات التي يشكلون عنصرا منها والتي تعطيهم معنى لذاتهم" (5).

يفرض الضبط الاجتماعي، توجيه الأفراد نحو نماذج السلوك المشتركة مع المجموعات الاجتماعية بطريقة مباشرة في إطار الجماعات الأولية (أسرة، أصدقاء، جيرة...) أو بطريقة مؤسسية في الجماعات الثانوية التي تسيّر وفق قوانين مثل الأحزاب السياسية والجمعيات... وعندما يستفيد الفرد من التنشئة الاجتماعية فإنه سوف يصبح عضوا من أعضاء الضبط الاجتماعي، إذ أن توارث نماذج السلوك ووسائل تعديله من جيل إلى آخر يضمن استقرار وإعادة إنتاج البناء الاجتماعي.

إذن تهدف التنشئة الاجتماعية إلى التشكيل الموحد للأفراد وأيضا لتوافقهم الاجتماعي من خلال مشاركتهم في المعايير والقيم ونماذج السلوك الخاصة بالجماعة. إنها تعبر

عن عملية تفاعل معقد أين يبحث الفرد عن طرق الاستجابة للانتظارات الجماعية . ويعرف " غي روشيه " **Guy Rocher** التنشئة الاجتماعية: "هي العملية التي يتعلم من خلالها الأشخاص كيف يدخلون في حياتهم كل العناصر السوسيو-ثقافية لوسطهم وإدماج كل ذلك في بناء شخصيتهم ، تحت تأثير التجربة والأعضاء الاجتماعيين ذوو المعنى من خلال التكيف مع المحيط الاجتماعي أين يجب أن يعيشوا فيه" (6)

وبالتالي يمكن تلخيص أهم أبعاد التنشئة الاجتماعية فيما يلي :

* عملية تحويل التمرکز على الذات إلى المسؤولية الاجتماعية :

إذ يتحول خلالها الفرد من طفل يعتمد على غيره متمركزا حول ذاته لا يهدف في حياته إلا لإشباع حاجاته الفيزيولوجية، إلى فرد ناضج يدرك معنى المسؤولية الاجتماعية، وكيف يتحملها، ويعرف معنى الحرية والاستقلال والاعتماد على الذات لا يخضع في سلوكه إلى حاجاته الفيزيولوجية فحسب ويستطيع أن يضبط انفعالاته ويتحكم في إشباع حاجاته بما يتفق والمعايير الاجتماعية (7).

* عملية تعلم هامة :

إن الطفل يكتشف الاتجاهات ويتعلمها كما يتعلم السلوك الاجتماعي الذي توافق عليه الجماعة ويرتضيه المجتمع (8). بمعنى أن التنشئة الاجتماعية تسمح بتمييز الجانب الفردي عن الجانب الاجتماعي، وذلك من خلال ثلاث مظاهر أساسية :

المظهر الأول: النظام الشخصي :

من خلال تضمين الرموز الثقافية، القيم والمعتقدات في سلوك الفرد الاجتماعي بحيث تجعل منه ذا جنوح ملازم للتمائل الاجتماعي (9).

المظهر الثاني، الاستقلال الفردي :

لا تعني التنشئة الاجتماعية، عملية إذابة الفرد في المجتمع لدرجة يفقد إحساسه بذاته الفردانية وإنما تعني إكسابه ذاتا مستقلة عن غيره، حيث تقدم له الثبات والضمان لوجدانيته، لأنها تعمل على التخفيف من قلقه وتوتره النفسي (10).

المظهر الثالث، توقعات الدور:

إذ تسمح للفرد بانتقاء السلوكات الاجتماعية التي تحقق التقدير الذاتي من جهة والوجدان الاجتماعي من جهة أخرى، وهي وظيفة كامنة في التنشئة الاجتماعية تقي الفرد من الانحراف والتوتر⁽¹¹⁾.

ثانيا : ميكانيزمات التنشئة الاجتماعية من الخلفية السيكلوجية إلى التناول السوسيولوجي :

إن توضيح ميكانيزمات التنشئة الاجتماعية يتطلب الأخذ بعين الاعتبار طرق دمج الفضاء النفسي للفرد^(*) في فضاءه الاجتماعي. هذه العملية تعني تعديل عميق للشخصية من خلال المحيط السوسيوثقافي ، وهي توظف في ذلك ميكانيزمات (التكرار، التوجيه، التقليد... الخ).

وتتحدد هذه العملية عموما، في إطار العلاقة الإنسانية أين تتجلى الذات بالنسبة للآخرين ، وهي بمثابة معادلة الطاقة^(**) ، التي تسمح بعملية التضمن الفعال للخصائص التي يثمنها المتفاعلون الاجتماعيون "إذ أنه كلما نمت عند الفرد القدرة على التفكير الرمزي ، التي على أساسها يستطيع التنبؤ بنتائج الأشياء قبل حدوثها، ازدادت بالتالي قدرته على أن يتحكم في المدى البعيد، ولذلك كان الشخص السوي هو ذلك الشخص الذي يتعلم أن يتنازل عن لذات قريبة عاجلة في سبيل الثواب الآجل، الأبعد أثرا والأكثر دواما نظرا لقدرته على إدراك عواقب الأمور ..."⁽¹²⁾.

يفسر " فرويد " **Freud** " تقمص الطفل للقواعد الاجتماعية و انتظارات الفاعلين الاجتماعيين بأنه رغبة ملحة ودائمة حيث أن الأنا الأعلى يوزع وظائف ويفرض رقابة على السلوك والتفكير من أجل جعلها متوافقة مع بعض المعايير الأخلاقية "حيث أو وظيفة الأنا الأعلى هو خدمة الهو ، وفق مبدأ الواقع، بمعونة الظاهرة الثانوية، ووظيفة الأنا هو حل المشكلات والتفكير والتخطيط ووقاية وجودها الاجتماعي"⁽¹³⁾

يتجلى من تحليلات فرويد النظرية حول الطبيعة الجنسية للروابط الاجتماعية أن الذات النفسية الشخصية تندمج في الذات الاجتماعية، وهو في ذلك يصف سيرورة الفضاء

النفسي للفرد في إطار التفاعلات الإنسانية وفق المستويات التالية:

المستوى الأول:

منح فيه فرويد دورا هاما للغرائز الجنسية في فهم وتفسير الحياة الإنسانية وخصها بالدور الأساسي والحاسم في بناء الشخصية كونها تدخل في مختلف أنواع النشاطات الإنسانية ، ضمن أشكال اجتماعية مختلفة . ولقد خصص فرويد جانب الهو كإطار يستوعب الغرائز الجنسية والرغبات الشهوانية. وما يعنيه فرويد هنا من الجنسية "sexuality" هو أوسع بكثير في مضمونها عن الجماع الجنسي بين الذكر والأنثى . كما يعزى أيضا في جزء منه إلى تأكيده على أنه لا يوجد أساس اجتماعي لورثة الغريزة في الناس حيث يتمثل المفهوم الضمني لهذا التأكيد الأخير في أن القوة أو الطاقة الناجمة عن الجنس يكون مستخدم في ربط الناس معا في جماعات اجتماعية من كل الأنواع مثل : الأسرة، الأصدقاء، جماعات العمل، المدن والشعوب، ثم أخيرا التنظيمات العالمية⁽¹⁴⁾.

المستوى الثاني:

هو مستوى الضمير أو الأنا الأعلى كما يسميه فرويد ، وهو المستوى الذي لا يمكن فيه فصل الذات الشخصية الفردية عن الجماعات الاجتماعية.

لقد استفاد "تالكوت بارسونز" **Talcott Parsons** في فهمه للأنساق الاجتماعية، من تحليلات فرويد في هذا المستوى واتخذ منها نقطة ارتكاز بين المجتمع والثقافة والأنساق الاجتماعية، خاصة أن فرويد يصف فيها كيفية ترجمة القيم والعلاقات الاجتماعية القوية التي تؤسس الذات العليا إلى الأشخاص الذين يضمونها ضمن مجالهم النفسي وذلك في كتابه عن "الذات والهو" (1923) الذي "أوضح فيه أن الأطفال يعوضون عن فقدانهم تقديس الذات في طفولتهم (...). بالذات المثالية أو الذات العليا والتي تعتمد على المقربين جدا إليهم عادة وهم الآباء والمعلمين وكل من توجد لديهم بعض المشاهدة مع آبائهم (...). والضمير في هذا الصدد يمثل وظيفة تلك الذات المثالية بل ويكون منتقدا إذا فشل في معاشة تلك الذات والنهوض بوظائفها"⁽¹⁵⁾

يلاحظ أن "فرويد" حاول خلال هذا المستوى ، تطوير نظرية عامة عن العمليات العاطفية اللاشعورية في المجتمعات الإنسانية، في إطار اهتمامه بفهم الدور الذي تلعبه تلك العمليات العاطفية اللاشعورية في كل تكوين واستمرار وجود المجتمعات، مع الإشارة إلى ما تلعبه تلك الإدراكات والمفاهيم من أدوار في حدود المقاصد الشعورية . إن نفس هذه القضايا تشكل المجال الرئيسي لاهتمام "علم الاجتماع اللاشعوري"*** في مجال تحليلات الضبط الاجتماعي⁽¹⁶⁾.

يعتبر الطرح السيكلوجي، من هذا المنطلق، مرجعا ابستمولوجيا أساسيا لعدة نظريات سوسيولوجية وعلى رأسها "الفينومولوجيا" ودليلا نظريا هاما ينطلق على أساسه عدة علماء سوسيولوجيين أمثال "هومانز" **G.Homans** " وإنجلز **Ingles** ... وغيرهم، الذين أدركوا أن علم الاجتماع لا يستطيع أن يتدبر أمره بدون نظرية عن الطبيعة الإنسانية، وذلك بفضل موقفه من أن كبت وقمع النظم الاجتماعية للفرائز الجنسية هو السر الذي يمكن الجماعة الإنسانية من التعاون في العمل من أجل أن يحمي الأفراد أنفسهم من النتائج السيئة للطبيعة "حيث يكون الفرد هنا متعلقا بتجارب اللذة **pleasurable expérience** " التي تنتج من الإشباع السريع للدوافع الغريزية المباشرة والتي تستخدمها الجماعات النفسانية من أجل أغراض أخرى أكثر من تلك الإشباعات الفردية الوقتية.

لقد أفادت نظرية التحليل النفسي في كشف أدوار الجانب اللاشعوري في الحياة الاجتماعية ومن ثم في تحديد الملامح النظرية الخاصة بالطبيعة الإنسانية "ووجدت هذه النظرية بشكل أكثر وضوح في عام 1950 وبدايات 1960 وكانت تقوم على دعوى أن الإنسان يلعب دورا مستمرا في البحث عن التوافق الاجتماعي، والمركز ومن ثم فالناس يتوافقون مع التوقعات المعيارية من أجل الحصول على التوافق لدى نظرائهم المفضلين أو غير المفضلين"⁽¹⁷⁾. حيث يقوم الأنا الأعلى بتأثيراته على الفرد بطريقة لا يحس بها ، ولذلك فإن الضغط الذي يمارسه عليه من أجل جعله متوافقا مع المحيط الاجتماعي عادة ما يفرض بطريقة آلية⁽¹⁸⁾.

ويظهر هنا التقاطع مع النظرية السوسيولوجية من خلال حاجة الفرد للآخرين من أجل

ارتقاء إحساسه بالذات، فلقد توافق "جورج هيربرت ميد" و"كولي" مع آراء "فرويد" حول تحليل الأنا ودوره في بناء شخصية الطفل الناشئ والتي عبر فيها على أن "الأنا يعد محور الارتقاء الاجتماعي للطفل منذ نهاية السنة الأولى من عمره ، وذلك لما يحققه من ارتباط بالآخرين عن طريق استجابته الملائمة نحوهم ، وما يحققه في الوقت ذاته من استقلاله في الفعل والشعور بالأناية المستقلة وظهور اللغة وما تنطوي عليه من قدرة هائلة على الاتصال بالآخرين" (19).

تلتقى الذات الفردانية مع الذات الاجتماعية من خلال كسر الغموض حول الشخصية ومن خلال التوليف بين وظائف المجال النفسي بقيادة الأنا بترشيد من الأنا الأعلى وبين الآثار الثقافية التي تفرزها عملية المحاكاة الاجتماعية حيث " يرى مظفر شريف و "كانترل" (1947) Sherif & Cantril أن عملية ارتقاء الأنا ليست نتيجة ازدهار آلي لقوى غريزية، وإنما بتأثر مضمون هذا الارتقاء وسرعته بالظروف المحيطة بالطفل من حيث الرعاية التي يتلقاها من الراشدين وظروف اكتساب اللغة واتصاله بثقافة أسرته وثقافة مجتمعه ، ويقرر "ماردندر مور" "أن الفكرة الغامضة التي يكونها الطفل عن الشخصية الرئيسية في حياته، تعد من العوامل الهامة، التي تساهم في عملية بزوغ الأنا عنده، فيحمل الطفل هذه الفكرة الغامضة عن الشخصية ، كما يدركها، إلى ملاحظات على نفسه، فتساهم هذه العملية في إقامة دعائم ذاته" (20).

واستنادا إلى ما سبق، فالطفل الرضيع منذ الولادة يمتص قيمه الأخلاقية ويتعلم ضبط رغباته الغريزية حتى لا يعاقب من طرف الوالدين أو الفاعلين الآخرين معه بالمشاركة وذلك من منطلق أن "الثقافات الإنسانية تحدد الأفعال الجنسية لأعضائها بمعنى أن الفعل والغاية يكونان مضبوطين سوسيوثقافيا ، وإن كانت المجتمعات تختلف في النقطة التي تعتبر فيها الانحراف الجنسي " sexual deviance " دلالة خطيرة أو جريمة ولكنها في نفس الوقت تضبطه بطريقة أخرى" (21).

وتتسق نظرية علماء الاجتماع في تشكيل شخصية الفرد مع نظرية "فرويد" في نشأة الأنا عند الطفل، فيرون أن الشخصية الإنسانية ما هي إلا نتائج للتشريط الاجتماعي الذي يقوم على دعامتين، الأولى : خبرة التفاعل مع الجماعة أو ما يسمى التفاعل الاجتماعي، والثانية : الثقافة وتتضمن قبول الفرد لطرق الجماعة في العمل والتفكير. ويتحدد وفق ما سبق

من الشروط النفسية الاجتماعية للتنشئة الاجتماعية المفهوم السوسولوجي للشخصية " وهي تعني تلك السمات والعلاقات الاجتماعية التي تحدد دور الفرد في الزمرة وتميزه عن الأفراد الآخرين فيها . فالشخصية بهذا المعنى ليست سوى انعكاس للمواقف الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد ويتصرف إزاءها وما الفرد والمجتمع - فيما يرى كولي 1902 - سوى مفهومين لشيء واحد " (22).

يتضح إذن أن علماء الاجتماع وعلماء النفس يتفقون في تحليلهم للأنا الإنسانية حول أهمية جانب الاتصال بين الأفراد في الجماعة وعلاقته بالتشريط الاجتماعي لنشوء الشخصية المنحرفة .

ثالثا: التنشئة الاجتماعية والاندماج الاجتماعي:

تلعب التنشئة الاجتماعية دورا مركزيا في سبيل اندماج الفرد في المجتمع ، إذ يعرفها "Cuche-Denys" بأنها "جملة من العمليات التي تسمح باندماج الفرد في المجتمع أو في جماعة خاصة، من خلال تضمينه جملة من طرق التفكير والشعور والتصرف، وبعبارة أدق تضمينه النماذج الثقافية الخاصة بالمجتمع أو الجماعة التي يعيش فيها " (23) وعلى هذا الأساس، تسمح التنشئة الاجتماعية، من ناحية، بتحقيق الانسجام الاجتماعي الكافي للجماعات والمجتمع، ومن ناحية أخرى تفتح المجال للتكيف الاجتماعي للأفراد من خلال تزويدهم بالوسائل التي تتيح لهم التوافق مع الانتظارات الاجتماعية.

وبهذا الشكل تحقق التنشئة الاجتماعية، الاندماج الاجتماعي للأفراد في مستويين يمثلان معا الاندماج، الأول: هو مستوى المجموعة أين تتحقق الروابط بين أفرادها والثاني: هو المستوى الفردي أين تسمح بالدخول في الجماعة.

يظهر من الناحية النظرية، أن مسألة العلاقة بين التنشئة الاجتماعية والاندماج الاجتماعي يمكن تناوئها من مدخلين أساسيين، وهما:

1- المدخل البنائي الوظيفي:

في تحديده للإطار العام، لتفسير الفعل الاجتماعي وعملية انتقاله من المحددات الفردانية إلى الأنظمة الشخصية الجماعية وذلك على خلفية المقولة المركزية للبنائية الوظيفية المتعلقة

بإشكالية اللاتكامل أو الاندماج الاجتماعي، من خلال تحليل وظائف النظام الاجتماعي الأربعة، وهي (24) :

* وظيفة تحقيق الثبات والاستقرار القيمي من خلال تحقيق الإجماع التأويلي للجهاز القيمي والمعياري الخاص بالمجتمع والمحدد له .

* وظيفة الاندماج، التي تعني أن النسق الاجتماعي، يضمن التكامل الضروري بين الفاعلين، أعضاء النسق

* وظيفة الاستمرارية في تحقيق الأهداف، بمعنى أن النسق من شأنه أن يضمن تحديد الأهداف وضمان الوصول إليها.

* وظيفة التكيف والتي تعني تحقيق الانسجام بين الوسائل والأهداف ضمن المحيط الاجتماعي.

كل تلك الوظائف، المتعلقة بالنسق الاجتماعي، هي في ذات الوقت مرتبطة بقناة التنشئة الاجتماعية في تحديدها للأسلوب الذي يتحقق من خلال الاندماج الاجتماعي. وتوقعات الأدوار والمكانة الاجتماعية في عملية بناء الانسجام الاجتماعي، حيث أن أنصار البنائية الوظيفية يرون أن "شخصية الفرد، تنمو وتتطور من خلال ممارسته لأدوار اجتماعية متباينة. لذلك أخضعوا الأدوار وكيفية أدائها ودرجة اعتراف الآخرين بمماثلة ممارسات الفرد لتوقعات ذلك الدور" (25). وعلى هذا الأساس يفسر "رالف تورنر" فشل الفرد في تحقيق الاندماج الاجتماعي من خلال سوء اختياره للدور "كنموذج" للتمائل مما لا يساعد على تكامل توقعاته حول ذلك الدور، فلما أن يبالغ في تقديره للعقوبات أو المكافآت التي يحصل عليها" (26).

2. مدخل التفاعلية الرمزية:

على اعتبار أن "جورج هيربرت ميد" وهو مؤسس هذا الاتجاه، يرى أن النفس البشرية تتبلور من خلال قابلية الفرد على الاتصال والتفاعل مع الآخرين من خلال استخدامه اللغة والإشارات (...) وهي تظهر من خلال الخبرة الاجتماعية والأنظمة والأنشطة الاجتماعية التي يمارسها الفرد داخل المجتمع (...). وذلك على خلفية مبدأ التوقعات المؤسسة على أرضية من الرموز التي جذورها اجتماعية متعلقة بالذات الفردية أو الأنا الاجتماعية أي " أن الفرد يقوم

بلورة رموز خاصة تعبر عن تفكيره ورغباته وحاجاته وخبراته وتكون بمثابة نموذج يستخدمه للقياس والتقييم للحالات الموقفية أو التفاعلية التي يواجهها في الحياة الاجتماعية" (27)

ومن هذا المنطلق، تعمل التنشئة الاجتماعية على إعادة تكامل الفرد واندماجه مع خبراته السابقة، وتقوم أيضا على تمثيل الفرد مع الآخرين من أجل تأنيسه أي تقوم بتنضيج الإنسان اجتماعيا.

ويلتقي المدخلين هنا في إحدى قنوات التفاعل الاجتماعي الأساسية، وهي قناة الضبط الاجتماعي من خلال أبعاده الفرعية التالية (28):

* التنميط : أي توضيح التوقعات الدورية للفرد لكي تساعد في ممارستها دون خطأ من قبل مؤسسات اجتماعية ذات أنماط اجتماعية واضحة.

* الروادع الداخلية : مرتبطة بالفضاء النفسي-الاجتماعي للفرد.

* الرموز الثقافية والاجتماعية : التي تساعد الفرد على التماثل مع مقومات النظام الاجتماعي

* الروادع الرسمية : التي تمارسها المؤسسات الرسمية عن طريق القوة الجبرية والإكراه.

* مؤسسات خاصة بإعادة دفع الفرد وجدانيا، وبنائيا في المجتمع بعد انحرافه عن السلوك السوي.

وامتدادا لتحليل الفعل الاجتماعي، في تفسيره لأثر التنشئة الاجتماعية على الاندماج يضيف

" آلان توران " **A. Tourain** " نقطة ارتكاز نظرية أساسية في كتابه " **Sociologie de**

l'action 1965 " وهي نقطة الذات كعنصر محرك للفعل الاجتماعي، الذي لا يجعله مجرد

فعل فردي، بل يتخطى ذلك ليعبر عن توقعات رمزية متعلقة بالدور والمكانة المصاغة على أرضية التنشئة الاجتماعية، التي تشير أن ذوات الأفراد تنشأ خلال ممارسة أدوارهم وفق نماذج تفاعلية، تلتي فيها القيم والمعايير مع الخبرات الفردية السابقة وذلك وفق ثلاثة مبادئ أساسية (29).

* مبدأ الذات : حيث أن كل حركة اجتماعية، عليها أن تشكل أو تعيد تشكيل ذات اجتماعية وجماعية في قاعدتها.

* مبدأ المعارضة : أي أن على كل حركة اجتماعية أن تتشكل من منطلق الصراع الذي يسمح بتقييم الفرد لذاته وتحديد الجماعات المعارضة والضدية.

* مبدأ الشمولية : أي أن للحركة الاجتماعية مشروع تغير اجتماعي متجدد، يقيم باستمرار تعريفات لأنساق الفعل التاريخي للمجتمع. بناء على ما سبق، نستنتج أن أي تذبذب في عملية التنشئة الاجتماعية، يمكن أن ينعكس بنتائج خطيرة ومهمة على الأداء النفس-اجتماعي للأفراد، لأن اندماجهم في النسق الاجتماعي، سيكون معرضا للضغط والتقليص⁽³⁰⁾، وعلى هذا الأساس يعرف الاندماج الاجتماعي على مستوى الجماعة "بأنه نوعية وشدة العلاقات التي تبني في إطار الجماعة وأيضا درجة مشاركة أعضاء الجماعة في أداء الوظائف المشتركة، وتحقق أية جماعة الاندماج إذا كان أعضاؤها يتخاطبون ويتعارفون ويتساندون ويتعاونون ويشاركون في الأعمال الجماعية المشتركة"⁽³¹⁾.

فيما يخص سيورة الاندماج الاجتماعي للأفراد في إطار الجماعة يعتبر كل من " V. De Gaulejac " و " I. Tabouda " أن الاندماج الاجتماعي والتهميش الاجتماعي، يشكلان قطبين لعملية واحدة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مستويات⁽³²⁾ :

المستوى الأول:

يخص الاندماج الاقتصادي المتعلق بالشغل والأجر، إنه يحدد مستوى مشاركة الفرد في نظام الإنتاج والاستهلاك ودرجة انضمامه في عالم الشغل، لأنه من خلال حركة التصنيع، يشكل الاندماج الاجتماعي معيارا لتحقيق الذات الاجتماعية أكثر من أي جماعة أخرى " حيث أن للعمل دورا أساسيا ومباشرا في تحقيق وتأكيد الذات فهو رمز للاستقلال لأنه يسمح للشباب الحياة بوسائلهم الخاصة، لذلك فإن الدرهم الأول له طعم خاص لما يحققه من زيادة في الثقة بالنفس"⁽³³⁾.

المستوى الثاني:

تجدر الإشارة في هذا السياق بأن التنشئة الاجتماعية الأولية تتمتع بأهمية قصوى بفضل وظيفتها الأساسية في تحقيق تبادل الأدوار والمعلومات والرعاية العاطفية، فإتاحة المجال لتبادل الصور الذاتية والتي تساعد في موقعة الفرد في جماعته، حيث أن أي خلل ضمن هذا الإطار قد يضعف الإحساس بالانتماء ويقلص من مصادر تثمين القيم ويحد من النقاط المرجعية للذات.

يُخص الاندماج الرمزي، حيث يعتبر هذا المستوى جوهريا من أجل فهم ظواهر التهميش الاجتماعي، لأنها تخص الاعتراف الرمزي. بمكانة الفرد في المجتمع، كما أنها تتعلق بتوافق الفرد أو عدمه مع المعايير والأفكار الاجتماعية وأيضا بميكانيزمات الوصم والعزل الاجتماعي الذي قد ينتج من عدم التوافق .

يمكن للتكيف الاجتماعي لدى الأفراد، أن يفشل، عندما تظهر العوامل التي تحد من دور الجماعات الرسمية من أداء دورها في التنشئة الاجتماعية. بهذا يمكن أن تلعب البطالة الطويلة وفقدان الصداقة والطلاق دورا مكرسا لأزمة شخصية والتي قد ينتج عنها جملة من النتائج السلبية المذبذبة للتوازن النفسي الاجتماعي للفرد.

ومما يزيد الوضع تعقيدا، هو ظهور بعض السلوكات الانسحابية المرتبطة بفشل العلاقات الاجتماعية والتي تظهر في شكل رفض للمعايير المعترف بها في المجتمع العام . وبهذا الشكل ينتج فك حالة الاندماج المؤدية إلى عملية التهميش الاجتماعي ، يطبعها فك للروابط الاجتماعية وفقدان شبكة التضامن والعزل الاجتماعي . فالمدمن يواجه خطرا أساسيا متمثلا في تهميشه الاجتماعي بسبب عدم تقبله للانضمام للنظام العام وفي حركات رفض المخدرات والتي هي سبب تهميشه (34).

غير أن ثنائية الاندماج والتهميش غير كافية لتفسير الظواهر الاجتماعية المرتبطة بالانحراف. حيث أنه إذا كان الاندماج هو عكس التهميش، فأين يمكن موضوعة الاندماج داخل الجماعات المنحرفة. أنها مسألة طرحها "S. ELLIOT" من خلال موقفه التالي: "إذا لم تعد الجماعات الأولية كالأسرة والمدرسة والأصدقاء قادرة على جعل الفرد يتوافق مع قيمها ومعاييرها الرسمية فإنه سيبحث عن حلول تعويضية داخل جماعات منحرفة من شأنها أن تمنحه شعور الحب والاحترام، ويزداد الاندماج داخل المجموعة المنحرفة كلما زادت مشاركات الفرد في إطارها وتحقيق حاجاته النفسية أثناء نشاطه داخلها" (35).

رابعاً: المراهقة وخطر التهميش الاجتماعي:

المراهقة هي مرحلة عمرية من الحياة، يمر فيها الإنسان بتحولات عميقة تمس ذاته في شتى جوانبها البيولوجية، النفسية والاجتماعية. فهناك مجموعة من الظروف السوسيواقتصادية والسوسيوثقافية التي ساهمت في كشف وتشخيص هذه المرحلة من وجود الإنسان. ولقد أكدت هذه الظروف جملة من السياقات التاريخية المرتبطة أساساً بالتحولات التي شهدتها المجتمعات الغربية.

لقد تم التأريخ لتشخيص سن المراهقة انطلاقاً من التغير النوعي الذي عرفته الحياة الاقتصادية في المجتمعات الغربية وذلك منذ ما يقارب 150 سنة. فمن خلال تطور الصناعات وتعدد عالم الشغل، تم إبعاد الأطفال بصفة تدريجية من سوق العمل، بدافع حمايتهم من الاستغلال من ناحية، ولتقدم العملية الإنتاجية وضعف تكوينهم العلمي من ناحية أخرى. هذا الإبعاد الظرفي أدى إلى إطالة عمر التعلم والتكوين لدى الأطفال⁽³⁶⁾ وهو الأمر الذي عمق من بعدهم عن حياة الناضجين، مما أطال تبعيتهم العاطفية والاقتصادية الخاصة بسن الطفولة. "إن التطور التقني استدعى تكويناً وتعليماً أكثر دقة وبالتالي إطالة فترة البطالة للشباب المراهق"⁽³⁷⁾.

خلال هذا الإبعاد، كان طبيعياً أن تطفو خصائص سن المراهقة التي أصبحت محسوسة وملحوظة في مظاهرها وانعكاساتها المتواصلة على المراهقين، في ظل إقصائهم من حياة الكبار. "أما في المجتمعات التقليدية، التي تتميز بإدماج مبكر للأطفال في الحياة الاقتصادية والنشاطات الاجتماعية فإنها تتميز بتقليص المسافة العمرية بين سن الطفولة وسن الرشد مما يؤدي إلى ضم سن المراهقة بكل خصائصها في غياب ما يعمق هذه السن من الناحية الاقتصادية والاجتماعية. إن إقصاء المراهقين من حياة الراشدين يفترض إعطائهم عناية أكبر من الناحية النفسية الاجتماعية أي تكثيف دور الآباء والمعلمين من أجل سد كل الترعات الطفولية والرغبات الجاهجة من طرف المراهقين في محاولة تحقيق شعور الاستقلالية وإثبات الوجود الذاتي، وهي نزعات ترتبط أكثر بسن المراهق، فحسب "E.H. Erikson" تعتبر فترة المراهقة فترة تغير سيكو - اجتماعي، إذ يبحث المراهق عن تجريب عدة أدوار اجتماعية، ولذلك يحكم

على بعض السلوكات التمردية في هذه السن بأنها سلوكات طبيعية، إذ هي تسد حاجة البحث والاكتشاف لدى المراهق⁽³⁸⁾.

إذن فالمراهق، عادة ما يحاول أن يعيش ويخوض تجارب جديدة يعبر فيها عن نجاته الجسدية وقدراته الذهنية أو الانفعالية، وهو بالضرورة بحاجة إلى رعاية ومتابعة مدروسة بعناية من طرف الراشدين (أولياء ، معلمين ...) لتحسين أسلوب التعبير عن كل ذلك⁽³⁹⁾. إن هشاشة التركيبة النفسية الاجتماعية الخاصة بسن المراهقة، هي من المظاهر الأساسية لمشكلة المخدرات، التي تبلغ ذروتها خلال هذه السن. فسن المراهقة كما هو محدد في واقع حياتنا الاجتماعية المعاصرة ، يحيلنا إلى فكرة صعوبة تنشئتهم الاجتماعية.

في الواقع، إن مختلف مصادر التنشئة الاجتماعية (ك الأسرة، المدرسة، الأصدقاء، وسائل الإعلام...) عادة ما تقدم للمراهق قيما اجتماعية متناقضة، وهي لا تتعامل معه في كليته، فغالبا ما يتم إهمال جوانب هامة من ملامح تطور شخصيته، مما ينعكس على صورة ذاته، مما يزيد المراهق تأزما مع عدم التساير في إكمال صورة الذات لديه في أبعادها التفاعلية، التي تتأخر فيها أدوار النشاطات الجنسية عن أدوار الحياة العملية (طول مدة البطالة) عن أدوار الحياة السياسية، هذا ما يؤدي إلى صعوبة تشكيل الذات بصورة واضحة⁽⁴⁰⁾، على اعتبار أن "الذات هي أساليب سلوكية يكتسبها الفرد، تجعله آمنا لأن هذه الأساليب ينتج عنها التوافق، فوجود الذات المتوافقة تعد بمثابة حماية للفرد من التعرض للعقاب وما يصاحبه من قلق، بينما وجود الذات غير المتوافقة يعد مصدرا لا ينضب للقلق والمعاناة"⁽⁴¹⁾.

إذن ، فإن مرحلة المراهقة هي مرحلة حاسمة في تشكيل ذات الفرد وعملية أساسية في تشكيل الشخصية الاجتماعية، وهذا هو مكنم الخطورة في هذه المرحلة من عمر الإنسان. فهي معرضة بحكم التغيرات الجذرية الطارئة على الذات إلى مجموعة من الأزمات السوسيونفسية، التي يشكل مظهرها الأساسي، الرغبة الجارحة في رفض المعايير الاجتماعية المتعارف عليها .

خامسا: أسس التنشئة الاجتماعية و إشكالية الانحراف :

أ- بناء الإدراك

إن إعادة تشكيل التوازن بين ساحة الإدراك وساحة التفاعل الاجتماعي تكون في ضوء مراحل تطور بيولوجية عبر مراحل زمنية من عمر الفرد ضمن محيطه الاجتماعي. إن هذه البنية الاجتماعية تكون جاهزة مسبقا في ثلاثات الطفل منذ ولادته، وبالتالي فالعملية المتاحة و المواكبة لمراحل تطوره في إطار عملية التنشئة الاجتماعية، هي عملية فقدان حالة توازن و إعادة استرجاع نفس الحالة في ظروف إدراكية جديدة وفق تفاعل اجتماعي معين و ضمن مراحل تطور بيولوجية خاصة بمراحل زمنية من حياة الطفل.

إذن فالفرد هو في حالة إعادة ترتيب البنية الإدراكية طبقا للتغيرات الخاصة و الموجهة للتفاعل الاجتماعي و التي توجد عناصرها ضمن المحيط الاجتماعي، فتطور البنية الإدراكية لدى الفرد عبر مراحل تطوره ولا تخرج عن حدود "الشكل -المجسد-الفضاء-الوقت- النسبية" و وهي عناصر غير منفصلة عن المحيط الاجتماعي أين تجد تأويلاتها وفق هذا الطرح يفسر " J. Piaget" بعض ظواهر التنشئة الاجتماعية مثل: الأنانية والالتفاف حول الذات المميز للرضع وصولا لظاهرة الانزواء المميزة لفئة المراهقين داخل المؤسسات وضمن الراشدين وهو يفصل في تفسيره لها بين انصياع الفرد للنظام الاجتماعي واستقلاله الشخصي في التعاون الطوعي مع الغير.

ب- بناء العاطفة:

يظهر هذا البعد بشكل واضح في مرحلة المراهقة، حيث يحاول المراهق أن يعيش ويجتاز تجارب جديدة يفرغ فيها طاقته الجسدية المندفعة و قراراته الذهنية أو الانفعالية المتقلبة. يجدر بالذكر أن أي نوع من الحواجز التي تحول دون تعبير الفرد عن ذاته الجسدية أو الاندفاعية، يجعله عرضة للإحساس بالتهميش و الإقصاء، في الواقع إن ذلك يعتبر من الشروط الأساسية لنشأة السلوك المنحرف (42)

ج- بناء منظومة القيم والمعايير:

يتعلم الفرد من خلال التنشئة الاجتماعية، صور التعرف والتفكير، وتعتبر مرحلة الطفولة المرحلة الحاسمة من بين مراحل السن في تحقيق ذلك، إذ تعتبر بالنسبة لعلماء الاجتماع مهمة في اكتساب جملة القيم والمعايير الفكرية والأخلاقية واللغوية والرمزية يحض السياق الاجتماعي بأهمية نظرية وتطبيقية كبيرة في مجال تعليم القواعد والقيم الاجتماعية، فيما بين الأجيال من خلال عملية اللعب وتقمص الأدوار الاجتماعية "حيث أن التنشئة الاجتماعية للفرد هو في حد ذاته نجاح لعملية اندماجه في المجتمع فهي تسمح بالتجانس القيمي و المعايير الضروري للتوافق الاجتماعي (43).

يعتبر موضوع بناء العصابة من بين المواضيع الهامة والمفيدة في معرفة دور القيم والمعايير في تفعيل السلوك الانحرافي، إذ يميل الصبية بين السن السادسة والسابعة وهي سن انتقالية في حياتهم إلى اللعب الجماعي البسيط، والمنافسات الفردية ومع بلوغهم سن الثامنة إلى سن الثانية عشر والتي تسمى بسن العصابة أو العصابة، يبدأ الصبية في التخلي عن بعض الألعاب، التي لم تعد تغذي رغبتهم في الانتماء، للدخول في مرحلة اللعب المعقد الذي يبنى على أساس المنافسات و استعراض القدرات الجسمية، وفي هذه السن يزداد ولاء الأطفال إلى جماعتهم، فتصبح تصرفاتهم منمطة بتصور ردود فعل الجماعة على سلوكياتهم، و تبدأ جماعة العصابة بالتبلور و الاستقرار من خلال جنوحها إلى إقامة نظام صارم للسيطرة على أساس الشجاعة والقوة البدنية، وإدراكهم للفرق الجسمية بين الذكور والإناث.

الخلاصة :

في ختام هذه المحاولة التحليلية، يمكن القول أن الانحراف عموماً، ليس إلا نتيجة منطقية لعملية التنشئة الاجتماعية الفاشلة، في إرساء قواعد و ميكانيزمات راسخة ومتينة تتيح للشباب المراهق إدراك ذاته على نحو واضح وصحيح، في عالم يشهد تغيرات سريعة في جملة القيم المنمطة للسلوك الاجتماعي وذلك خصوصاً في عالم أصبح مثل قرية صغيرة، كل ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا في الأوساط الاجتماعية الطبيعية وعلى رأسها مؤسسات الأسرة والمدرسة

والمسجد.... من الناحية النظرية، توجد جهود كبيرة من التنظيرات الأساسية والفرعية التي حاول ممثلوها فهم ظاهرة الانحراف عموماً، ولأن موضوع الدراسة الحالية يركز على قضية دقيقة في هذا الإطار وهي توضيح الارتباطات على الصعيد النظري بين معطى الاندماج الاجتماعي كعملية ذات طابع تفاعلي مع مكونات الذات الإنسانية لا سيما عالم الصور والتمثيلات التي تحركها الحياة الاجتماعية للشباب، وذلك في مقابلتهم مع عالم الانحراف فلقد حاولنا توضيح أهم الأبعاد و الأسس السوسيولوجية التي قد تسمح بتفسير تذبذب حالة الاندماج لدى الأفراد لا سيما في مرحلة المراهقة أين يفيد الفهم السوسيولوجي لعملية التنشئة الاجتماعية في فك ملابسات الانحراف.

مراجع المقال

1- جمال أبو شنب : السلوك الاجتماعي، دار المعرفة الاجتماعية، قناة السويس، 2002، ص 86.

2- المرجع نفسه ص 144 .

3- **Martine Xiberras: Les théories de l'exclusion, 2eme ed. Armand Colin, Paris .1998, p. 40.**

4- جمال أبو شنب : المرجع السابق، ص 29

5- فؤاد بهي السيد : علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1980، ص. 210.

6- **Jean –François Briffer : Intégration sociale et psychopathologie chez les -usagers de drogues, thèse de doctorat, Université Lumière, Lyon, 1999, p. 18.**

7- أنور محمد الشرقاوي : انحراف الأحداث، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، القاهرة، 1986، ص 18. 8- المرجع نفسه، ص 186 .

9- معن خليل عمر : نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت، ص 128

10- المرجع نفسه، نفس الصفحة 128

11- المرجع نفسه، نفس الصفحة 175

(*) ميز فرويد ثلاث طبقات في الوجود النفسي أو الفضاء النفسي وهي : الشعور، قبل الشعور، اللاشعوري. وقام بضرب سياج حول الوجود النفسي فأقام الهو حول الوجود اللاشعوري والأنا حول الوجود الشعوري وجعل الأنا الأعلى بنية خارجية تتراكم مع بنية الأنا على الشعور في مرحلة صناعة المجتمع للطفل.

(**) مصطلح فرويدي يقصد به الغريزة أو الليبدو، وهي مسؤولة على ديناميكية عناصر الوجود النفسي وبنائه.

12- أنور محمد الشرقاوي: مرجع سبق ذكره، ص 150.

13- ميخائيل إبراهيم أسعد : علم الاضطرابات السلوكية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1977، ص 73.

14- جمال محمد أبو شنب: مرجع سابق ، ص 43

15- المرجع السابق نفسه، ص 45

(**) استخدم هذا المصطلح من طرف "ويلهايم ريتش Wilhelem Reitch في كتابه

الثورة الجنسية The sexual Revolution ، لندن، 1951، ص 8. وقد كان المجال

الرئيسي لاهتمام علم الاجتماع اللاشعوري يكمن في تحليلات الضبط الاجتماعي.

16- جمال محمد أبو شنب: مرجع سبق ذكره، ص 48.

17- جمال محمد أبو شنب: مرجع سبق ذكره، ص 49.

18-Jean François Briffier : op.cit. P.48.

19- مصطفى أحمد زكي: الرعاية الوالدية وعلاقتها بشخصية الأبناء ، دار النهضة العربية،

بيروت، 1974، ص 19

20- المرجع نفسه، ص 20.

21- جمال محمد أبو شنب: المرجع السابق نفسه، ص 47.

22- مصطفى أحمد زكي: المرجع السابق نفسه، ص 18 .

23- صالح حسن الداهري : الشخصية والصحة النفسية ، مؤسسة حمادة ودار الكندي

الأردن، 1999، ص 38

24-Sous la direction de Thierry Alberne : op.cit, p. 514

25-Denys Cuhe : La notion de culture dans les sciences sociales, ed.

Alger --, 1998 , p.47. Casbah

26- Claude DUBAR : La socialisation, Armon Colin , 3ème ed. , Paris,

2000, p. 53

27- معن خليل عمر: الفكر الاجتماعي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، دار الآفاق الجديدة،

بيروت، ط2، 1991، ص 243.

28- نفس المرجع، ص 247.

29- نفس المرجع، ص 171.

30- المرجع نفسه، ص 128.

- 31- Lucy Bagnet : L'identité sociale, Dunod, Paris, 1998, p.15
- 32-Marline Xiberras : Les th2ories de l'exclusion, Armon Colin, 2eme Paris, 1998 p. 122. -ed. ,
- 33-Jean François Briffier : op.cit ; p. 48.
- 34-Maurice Debesse : L'adolescence, PUF, 2eme ed. , Paris, 1997, p.73
- 35-Ronald L. Alkers: Criminological theories (introduction and evaluation) Roxbury Publishing Company, Los-angeles, California, 1993, pp.187-189.
- 36-Jean François Briffier : op.cit ; p.50
- 37-Ronald L. Alkers : op.cit, p.190.
- 38-Jean-François Briffier : op.cit ; p. 55.
- 39-Yves Pélicier. Guy Thuillier : La drogue. Ed. DAHLAB . 7ème ed. Juillet1992. p. 58.
- 40-Anne Torz : Adolescents, risques et accidents, (Centre international de l'enfance) ed. Doin diffusion, Paris 1985, p. 82
- 41-Yves Pelicier, Guy Thuillier : op.cit, p.48 -.
- 42-أحمد شبشوب: علوم التربية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1991 ص197.
- 43-عدلي السمرى: السلوك الانحرافى دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992. ص81